خلاص النفس

المضيّ في المسيح نحو النضج الكامل

حقيقة عميقة لا يدركها كثير من المؤمنين: الولادة الجديدة ليست خط الوصول — بل هي خط الانطلاق. فحين تقبل يسوع المسيح ربًّا وملكًا على حياتك، يتجدد روحك في الحال ويصبح جديدًا. غير أن رحلة الاكتمال لا تنتهي هنا؛ بل في الحقيقة، هي لم تبدأ بعد.

فكّر في الأمر هكذا: قبول يسوع يشبه شراء منزل والانتقال إليه. المنزل أصبح ملكك الآن، لكنّ الانتقال لا يعني أن المنزل نظيف. الغرف تحتاج إلى ترتيب، والفوضى القديمة يجب أن تُزال. هذا العمل الداخلي المستمر من التحوّل هو ما يسميه الكتاب المقدس خلاص النفس.

ما هي النفس — ولماذا تحتاج إلى خلاص؟

حين نولد من جديد، يتجدد روحنا في الحال ويحيا في الله. لكن النفس — المؤلَّفة من العقل والعواطف والإرادة — لا تتحوّل تلقائيًا لحظة الإيمان. بل يجب أن تُجدَّد بمرور الوقت. فإن بقيت النفس غير محوَّلة وغير مجدَّدة، فسيجد المؤمن نفسه في تذبذب دائم: تسوقه العواطف، وتتحكم فيه الدوافع، ويكون هدفًا سهلًا للعدو.

> **مثال:** تخيّل أنك تقف في البحر والأمواج تتلاطم من حولك. كل دقيقة تضربك موجة جديدة وتقلب توازنك. هكذا تمامًا يعيش من لم تُخلَّص نفسه — يُطرح باستمرار أرضًا بسبب مشاعره، عاجز عن اتخاذ قرارات ثابتة، لأن حياته الداخلية لا أساس راسخ لها.

> **مثال:** تخيّل لصًّا يتجسس على الحي. إن رأى كاميرات مراقبة على منزل، انصرف فورًا. لكن إن بدا المنزل غير محمي، عاد إليه مرارًا وتكرارًا. العدو يعمل بالطريقة ذاتها. النفس غير المخلَّصة — العارية، غير المنضبطة، غير المجدَّدة — باب مفتوح للهجمات الروحية. العدو يتعرّف على الضعف ويستغله دون تردد.

العلامة: الإيمان المبني على المشاعر

أوضح علامة على نفس غير مخلَّصة في مؤمن ولد من جديد هي حياة تحكمها العواطف كليًّا. هذا الشخص يحب الله بصدق، لكن سيره معه يصعد ويهبط تبعًا لمشاعره. هو متقلب روحيًّا — ملتهب الأسبوع الأول، غائب في الأسبوع التالي.

الرسول بطرس هو أحد أقوى الأمثلة في الكتاب المقدس على هذا الصراع. لقد أعلن بجرأة أنه حتى لو أنكره الجميع، فلن ينكره هو أبدًا. كان حبّه للمسيح حقيقيًّا. لكن حين جاء الاختبار، كان بين أوائل من أنكروا الرب وشتموه. كان روحه مستعدًّا، لكن نفسه — مشاعره وإرادته وضبطه لنفسه — لم تكن قد خُلِّصت بعد. المؤمن المولود من جديد الذي لم تُخلَّص نفسه يُطلق تصريحات جريئة في لحظات الدفء الروحي، ثم ينهار تحت الضغط الحقيقي.

هدف الله للمؤمن: الشبه بالمسيح

إذا كان خلاص النفس مسيرةً، فما هي وجهتها؟ الهدف الأسمى لله لكل مؤمن هو امتلاك طبيعة المسيح ذاتها. حين يتعامل الناس معك، ينبغي أن يشعروا بشيء ملموس: الراحة، الثبات، النعمة — لا شخص يُقابل كل موقف بقلق أو غضب، بل إنسان تعكس حياته الداخلية الرب نفسه.

هذه المسيرة التكوينية ليست جديدة — فحتى المسيح ذاته مرّ بها:

عبرانيين 5: 8 (NIV)

> "مع أنه كان ابنًا، تعلّم الطاعة مما تألّم به."

قضى يسوع ثلاثين سنة في التهيئة قبل أن تبدأ خدمته العلنية. في ثقافة الملوك قديما، كان الملك يُدرّب ابنه تدريبًا شاملًا في كل جوانب القيادة. وبعد اكتمال هذا التكوين، كان يُقيم الملك حفلًا علنيًا ويُعلن: "هذا ابني الحبيب — اسمعوا له." لم يكن هذا مجرد إعلان هوية؛ بل كان إعلانًا بأن الابن قد أتمّ استعداده وأصبح مهيّأً تمامًا لتمثيل مملكة أبيه. هذا بالضبط ما أعلنه الآب السماوي عن المسيح عند معموديته — وقد جاء في نهاية مسيرة تكوين طويلة، لا في البداية.

يشتاق الله أن يُطلق الإعلان ذاته على أبنائه. لكنه يأتي بعد مسيرة. التجارب والانضباط والمعاناة — ليست عقوبات. إنها الوسيلة التي تتشكّل بها النفوس وتُخلَّص. بطرس يوضّح ذلك بجلاء:

1 بطرس 1: 3-9 (NIV)

> "مبارك إله ربنا يسوع المسيح وأبوه، الذي بحسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية لرجاء حيّ بقيامة يسوع المسيح من الأموات، لميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل، محفوظ في السماوات لأجلكم... ففي ذلك تبتهجون، مع أنكم الآن إن اقتضى الأمر تتألمون يسيرًا في تجارب متنوعة، لكي تظهر جودة إيمانكم — وهي أثمن من الذهب الفاني مع أنه يُمتحن بالنار — فتكون سببًا للحمد والمجد والكرامة عند استعلان يسوع المسيح. الذي وإن كنتم لم تروه تحبونه، وإذ لا تبصرونه الآن لكنكم تؤمنون به، تبتهجون بفرح لا يُنطق به ومجيد، نائلين غاية إيمانكم خلاص أنفسكم."

عبارة بطرس حاسمة: "نائلين غاية إيمانكم." هو لا يتحدث عن الخلاص الأبدي بعد الموت. يتحدث عن شيء يُنال هنا، على هذه الأرض، في هذه الحياة: النضج الكامل للنفس. هي أعلى نقطة يمكن للمؤمن بلوغها بالإيمان — عقل مجدَّد، وإرادة منضبطة، ومشاعر مسلَّمة لروح الله.

النفس غير المخلَّصة، في المقابل، تشبه شخصًا يحضر جنازة شخص لا يكاد يعرفه، ويجهش بالبكاء بصوت عالٍ — أو يُصاب برعب شديد من فكرة موته هو. لا مرساة داخلية. النفس رهينة لكل شعور يعبر من خلالها.

ثلاثة أهداف لخلاص النفس

مع تجديد النفس تدريجيًّا بالكلمة والروح، تبدأ ثلاث سمات مميّزة تظهر في حياة المؤمن. ليست هذه فضائل اختيارية — بل هي دليل الهدف الذي يسعى إليه التحوّل الداخلي.

أولًا: التواضع

التواضع هو الأساس. المؤمن الذي تُخلَّص نفسه يصبح سهل التعامل — قريبًا، قابلًا للتعليم، وديعًا. وهذا يؤثّر في كل جانب من جوانب الحياة: في الزواج، في العلاقات، في الخدمة، وفي سيرة المؤمن مع الله.

الكبرياء هو العدو الأول لخلاص النفس. المؤمن المتكبّر يُصرّ على حل المشكلات بطريقته هو لا بطريقة الله. حين يواجه تحديًا، يعتمد على تفكيره الخاص ويرفض تصحيح الروح. والعنادُ — رفيق الكبرياء — ليس مجرد سمة شخصية غير مؤذية. إنه موقف نفس ترفض الخضوع. وهذه النفس التي ترفض الإذعان لله قد وضعت نفسها على العرش الذي ينتمي للمسيح وحده.

ثانيًا: ضبط اللسان

السمة الثانية لنفس في مسيرة الخلاص هي القدرة على ضبط اللسان — خاصة في لحظات الغضب، والصراع، والضغط العاطفي. هذه من أصعب المعارك وأكثرها أهمية التي سيواجهها المؤمن على الإطلاق.

أمثال 16: 32 (NIV)

> "الطويل الأناة خير من الجبّار، والمالك نفسه خير من آخذ مدينة."

الشخص الذي يعرف هويته — ابن الله، محبوبًا وآمنًا — لا يحتاج إلى الانتقام. يستطيع أن يصمت حين يكون الصمت حكمة. يستطيع أن يتكلم بنعمة حين تكون الكلمات ضرورية. يستطيع أن يُصلّي لأجل من يؤذونه، لأن من خُلِّصت نفسه

يعرف كيف يصلّي لأجل أعدائه. والمغفرة، من هذا المنظور، ليست شعورًا — بل هي قرار إرادة، انعكاس لطبيعة الرب فينا.

الآباء والأمهات الذين يُغضبون بسرعة هم في الغالب أشخاص يكبتون جراحًا داخلية عميقة. لأن تلك الجراح لم تُحمَل إلى الله للشفاء، يتسرّب الألم — ودائمًا يجد طريقه إلى أحبّ الناس. خلاص النفس يشفي تلك الجراح من جذورها، حتى يفيض منّا النعمة لا السمّ.

ثالثًا: الصبر (طول الأناة)

السمة الثالثة هي الصبر — القدرة على المثابرة فيما دعاك الله إليه دون رجوع للوراء. هذه السمة هي التي تفصل بين من يبدأون بحماس كبير، وبين من يُكمِلون فعلًا.

قلة الصبر تبدو هكذا: يُعطيك راعيك كتابًا روحيًّا، فتبدأ بقراءته بنار وحماس. تصل إلى الصفحة العشرين — وبعد أسابيع، ما زلت في المكان ذاته. إن استمر هذا النمط في حياتك الروحية، لن تتقدم. ستبقى في المكان ذاته، عامًا بعد عام، بينما الله يدعوك للأمام.

أحد المسحات الروحية الكتابية هي مسحة الثور. الثور يتقدم — بثبات، باستمرار، تحت أي ثقل. لا يندفع للأمام بحماس، ولا يتراجع حين يثقل الحِمل. يواصل التقدم للأمام. هذه هي روح الصبر التي يدعو الله كل مؤمن للسير بها.

مزمور 44: 5 (NIV)

> "بك ندفع أعداءنا، وباسمك ندوس قائمينا."

يشوع وكالب يجسّدان هذه الروح. رأيا نفس العمالقة، نفس العقبات، ونفس الاستحالة الظاهرة كبقية الجواسيس العشرة. لكنهما لم يرتدّا للوراء. بعد عقود، وبعد أربعين سنة من التيه لم يكن ذنبهما، كانا ما زالا واقفَين — ما زالا يتقدمان. الروح القدس الساكن في كل مؤمن هو مصدر هذا الصبر. إنه يجعلنا أقوى من كل ما تواجهنا الحياة، تمامًا كما فعل ليشوع وكالب.

كيف تُخلَّص النفس؟ عطية الله في القيادة الروحية

إن كان خلاص النفس بهذه الأهمية، فكيف يحدث فعلًا؟ يُجيب بولس على هذا مباشرة:

أفسس 4: 8، 11-12 (NIV)

"لذلك يقول: لما صعد إلى العلو سبى سبيًا وأعطى الناس عطايا... وهو أعطى بعضهم رسلًا وبعضهم أنبياء وبعضهم مبشرين وبعضهم رعاة ومعلمين، لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح."

حين صعد المسيح، لم ينسحب من كنيسته. بل أعطى لها عطايا. ومن أهم تلك العطايا لخلاص النفس الرعاةُ والمعلمون.

عبارة "سبى سبيًا" تشير إلى أن المسيح أعطى طبيعته الخاصة — رافعًا المؤمنين فوق حدودهم الطبيعية ومشكِّلًا إياهم على شبهه من خلال خدّامه المعيَّنين.

ثم يضع بولس ثلاثة مستويات متسلسلة لا يمكن إعادة ترتيبها أو تجاوزها:

١. النضج الروحي — تكميل القديسين
٢. أعمال الخدمة — الخدمة المنبثقة من النضج
٣. بنيان جسد المسيح كله

الترتيب مهم جدًّا. لا يمكنك القيام بأعمال خدمة فعّالة ودائمة من نفس غير ناضجة. ولا يمكنك بناء جسد المسيح حتى تكون أنت نفسك في الخدمة. لا اختصارات في مسيرة الله التكوينية. النضج الروحي ليس تحضيرًا اختياريًّا للخدمة — بل هو الأساس الذي بدونه تنهار كل خدمة في نهاية المطاف.

لهذا فإن الانضباط في الجلوس تحت تعليم الرعاة والمعلمين المخلصين ليس مجرد تفضيل — بل هو عطية إلهية. الله وضع هؤلاء الموهوبين في جسد المسيح خصيصًا لتيسير خلاص نفسك. مقاومة هذه العطية أو إهمالها يعني إبطاء المسيرة التي رتّبها الله لنموك.

تحذير: ثمن النفس غير المخلَّصة

يُقدّم لنا الكتاب المقدس صورة مؤلمة لما يحدث حين يرفض شخص ذو دعوة عظيمة مسيرةَ خلاص النفس. اسمه شاول — أول ملك لإسرائيل.

1 صموئيل 15: 3، 20-23 (NIV)

"الآن اذهب واضرب عماليق وحرّم كل ما له ولا تشفق عليه..." ... فقال شاول لصموئيل: "إني سمعت لقول الرب وذهبت في الطريق التي أرسلني فيها الرب وأتيت بأجاج ملك عماليق وحرّمت عماليق. لكن الشعب أخذ من الغنيمة غنمًا وبقرًا أفضل المحرَّمات ليذبح للرب إلهك في الجلجال." فقال صموئيل: "هل مسرة الرب بمحرقات وذبائح كما بالسمع لصوت الرب؟ ها إن الطاعة أفضل من الذبيحة والإصغاء أفضل من شحم الكباش. لأن التمرد كخطية العرافة والعصيان كإثم الترافِ والأصنام. لأنك رفضت كلام الرب رفضك من أن تكون ملكًا."

مأساة شاول ليست أنه كان شريرًا — بل أنه كان مطيعًا جزئيًّا. فعل معظم ما أمر به الله، ثم بَرَّر الباقي. والأكثر كشفًا أنه حين واجهه صموئيل، كان يؤمن حقًّا أنه كان مطيعًا. نفسه غير المخلَّصة خدعته وأقنعته بأن نسخته من الطاعة كانت كافية — وأن تفكيره الخاص يمكنه أن يحلّ محل الوصية الصريحة لله.

ردّ صموئيل يصل إلى قلب خلاص النفس: الطاعة أفضل من الذبيحة. النفس التي ترفض الخضوع لا تستطيع التعويض بنشاط ديني. العناد، كما يُعلن صموئيل، هو تمرّد. الإرادة الذاتية هي وثنية. ليست هذه مجرد عيوب شخصية ثانوية — بل هي مواقف روحية كلّفت شاول مملكته بأكملها.

سقوط شاول لم يكن بسبب خطية عظيمة في عيون الناس. كان بسبب إرادة رفضت الانحناء. وهذا بالضبط ما صُمِّم خلاص النفس ليشفيه.

لا تقنع بخلاص الروح وحده.
تقدّم — حتى تنال غاية إيمانك: خلاص نفسك.